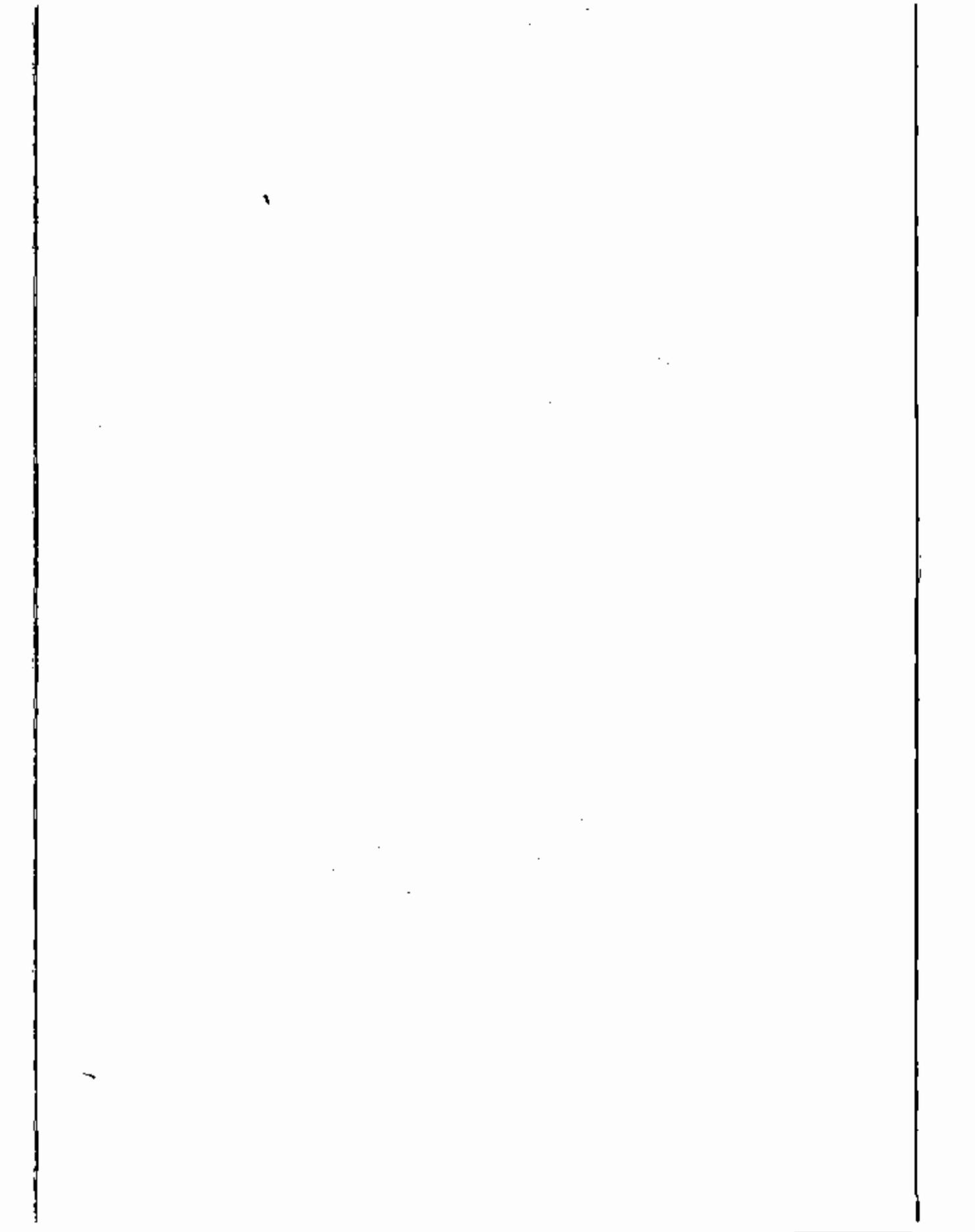


المراكز الحضارية في مصر والشام في القرون المسيحية الأولى

بحث مقدم من

الأستاذ الدكتور

محمود سعيد عمران



المراكز المطاوعة فى مصر والشام فى القرون المسيحية الأولى

ينصب هذا البحث على دراسة بعض المراكز الحضارية فى مصر والشام فى القرون المسيحية الأولى، ونخص بهذه المراكز مدينة الإسكندرية، وغزة، وقيسارية، وبيروت، وأنطاكية، لتعرف عليها وعلى بعض علمائها وأنواع الحضارة فيها، وإلى أى مدى أثر وتأثر بعضها ببعض فى تلك المرحلة الموعلة فى القدم، والتي كان لها أكبر الأثر على المنطقة بأثرها حتى يومنا هذا. وإذا بدأنا بمدينة الإسكندرية نقول إن المدينة بلغت فى العصر قبل المسيحي درجة عالية من النهضة العلمية حتى أصبحت العاصمة الثقافية للمنطقة، وكانت أروقتها تزخر بالوالمدين إليها من العلماء والطلاب من الأحاء كلها حاملين معهم ثقافتهم. وعاش فى المدينة أهلها الوطنيون بدياتهم واليونان بفلسفاتهم، والرومان بقوانينهم، فضلاً عن الطائفة اليهودية وبعض الأجناس الأخرى، وكان لهؤلاء كلهم آلهتهم وعاداتهم وثقافتهم المختلفة.

وقد تقابل هؤلاء كلهم وتناقشوا واتفقوا مرة واختلفوا مرات، وعلى الرغم من هذا فقد نتج عن هذا نوع من الحوار الفكرى أفرز مذاهب فكرية جديدة لمحاولة التوفيق بين هذه المعتقدات كلها، التي عرف أهمها باسم الحركة التوفيقية Syncretism، ولكنهم لم يتوصلوا إلى فكرة الإله الواحد، وفى معتك هذه الأحداث ظهرت المسيحية فى مصر على يد القديس مرقس، وعلى يديه أيضاً أنشئت المدرسة المسيحية اللاهوتية فى الإسكندرية⁽¹⁾.

وكان على المسيحية أن تقاوم فى اتجاهين؛ الأول هو اضطهاد الحكام الوثنيين، والثانى هو الأديان المضادة وللسفاتها، وبذلك بدأ الصراع الفكرى بين المسيحية والوثنية؛ وحتى تنتصر كل جماعة على الأخرى درس كل فريق مؤلفات الجانب الأخر، وكان واقع الحال أن الصراع بين الدين والعقل لم يسلم

(1) Attwater, Dictionary of Saints, Penguin, 1975, pp. 231 - 2 - 1.

بالمعجزات، وتنتج عن ذلك الفلسفة الغنوسية Gnosticism، والفلسفة الأفلاطونية الحديثة Neoplatonism⁽¹⁾.

والغنوسية هي المعرفة، وبذلك ميز أصحاب هذه الفلسفة أنفسهم عن أصحاب الديانات، ورضعوا من قدر الدين ورفعوا من شأن المعرفة لأنهم وضعوا العقل فوق الإيمان، والفلسفة فوق الدين واعتقد أصحاب هذا المذهب أن الإنسان يتكون من ثلاثة عناصر، هي الروح والجسد والنفس، وتسموا الناس وفق العنصر الغالب فيهم إلى ثلاثة طبقات.

الأولى الروحانيون الذين يسيطر عليهم العنصر الإلهي ويرتفعون فوق المادة، والثانية الجسديون، وهم العامة الذين يتعاملون بالمادة، والثالثة النفسانيون، وهي طائفة متوسطة بين الروح والجسد، وقد انتشرت هذه الفلسفة في مصر ومنها إلى الأقاليم المجاورة خاصة بلاد الفرس⁽²⁾.

أما الفلسفة الأفلاطونية الحديثة فقد ولدت في الإسكندرية على يد أمونيوس سقاس Ammonius Saccas، وهو سكندري لوالدين مسيحيين، وقد تولد لديه هذا المذهب الذي كان مزيجاً من فلسفات أفلاطون Plato وأرسطو Aristotle، وواقع الحال أن هذه الفلسفة قد أخذت اتجاهًا مختلفًا عن الفلسفات السابقة لأنها قامت على نظم دينية، وتولى أمونيوس حوالي عام ٢٣٤م دون أن يترك كتابًا عن فلسفته، ولكن الباحثين تلقوها من تلميذه أفلوطين Plotinus، وبورفيرى Porphyry خليفته، وأروجين Origen، كما أثرت هذه الفلسفة على القديس أوغسطين St. Augustine⁽³⁾.

تقدمت المسيحية واعترف بها الإمبراطور قسطنطين Constantine

Mullett and Scott. Byzantium and the Classical Tradition, Univ. of⁽¹⁾ Birmingham, 1979, pp. 11, 15 - 6.

Hussey, J.M (ed.) Cambridge Medieval History, Cambridge, 1987, Vol. IV,⁽²⁾ Part II, pp. 201, 348.

Saint Augustine, Confessions, Penguins, 1961, pp. 144 ff. ⁽³⁾

(٣٠٥ - ٣٣٧) دينًا داخل الدولة بموجب مرسوم ميلان عام ٣١٣م إلا أن الوثنية ظلت محتظة بنفوذها الثقافي، وأخيرًا اعترف الإمبراطور ثيودوسيوس الأول Theodosius I (٣٧٩ - ٣٩٥م) بالمسيحية دينًا رسميًا للدولة، فضعف نفوذ الفلاسفة الوثنيين وفكرهم.

وبدأت مدرسة الإسكندرية المسيحية، ووضعت أسسًا منهجية لتعليم الوثنيين وغيرهم الذين دخلوا في الديانة المسيحية، وأصبح عل المفكرين المسيحيين أعداد أجيال متفهمة للدين المسيحي، والرد على كل ما يوجه إلى المسيحية من نقد أو تحريف، والتبشير بها، وهكذا نمت مدرسة الإسكندرية حتى أطلق عليها المؤرخ الكنسي يوسابيوس أكاديمية الإسكندرية^(١).

ومن الذين تولوا إدارة مدرسة الإسكندرية العالم المسيحي بانتانوس Pantænus الذي وصفه المؤرخ يوسابيوس بأنه كان أعظم علماء عصره، وكانت له في نهاية القرن الثاني الميلادي سمعة كبيرة في الأرجاء كافة، وكان يدرس معه نخبة ممتازة من علماء عصره، وللعالم بانتانوس باع كبير في تهذيب اللغة القبطية، وله شروح على الإنجيل وتفسير كثيرة في اللاهوت وقد سافر إلى الهند حوالي عام ١٩٠م بناء على رغبة بعض الهنود الذين حضروا إلى الإسكندرية ليتعلموا على يديه^(٢).

وجاء بعد بانتانوس كلمنت Clement لإدارة مدرسة الإسكندرية، وهو سكندري ولد لأبوين وثنيين عام ١٦٠م ثم اعتنق المسيحية، وقد درس الفلسفة وجمال في بلاد اليونان ثم جنوبي إيطاليا، ثم لبنان وفلسطين وخالط أهلها وأخيرًا جاء إلى مصر، ثم استقرت به الحال في الإسكندرية، وتعلم على يد بانتانوس وخلفه في إدارة المدرسة.

Eusebius, The History of the Church, Penguin, 1981, pp. 103, 124. (١)

Eusebius, Op. Cit., 258 - 9. (٢)

وأهم ما قدمه كلمنت أنه أدخل العلوم الفلسفية واللغات والبلاغة والشعر والمنطق والموسيقى والفلك والجغرافيا وغير ذلك في مناهج المدرسة؛ ولعل أهم ما قدمه هو تحديد العلاقة بين الفلسفة والدين المسيحي، وعندما اشتد الاضطهاد بمدينة الإسكندرية في عام ٢٠٢م غادر كلمنت مدينة الإسكندرية فأغلقت المدرسة مؤقتاً^(١).

وفي عام ٢٠٤م تولى أورجين إدارة المدرسة، وقد اشتهر حتى هذه المرحلة، ولم يكن تجاوز العشرين عاماً، بأنه من أنجب طلاب هذه المدرسة وأذكاهم، وأنه يتحلى بحسن السلوك ومثانة الإيمان. لقد درس كثيراً في المدرسة المسيحية دراسة متعمقة^(٢)، ثم في المدرسة الوثنية، حتى أصبح علامة عصره في حقائق الديانة المسيحية، وأصبح جديراً بتولى منصب إدارة مدرسة الإسكندرية؛ ويكل ما لديه من علم بدأ في العمل على تطوير مناهج الدراسة في المدرسة.

يقول المؤرخ يوسابيوس: ولما رأى أورجين أن الطلبة الذين تولى أمر تعليمهم قد أخذوا يزدادون ويتكاثرون، رأى أن استمراره في تدريس العلوم الطبيعية والأدبية لا يتناسب مع تدريس العلوم الدينية^(٣)، ولذلك ترك أفكار المدرسة الوثنية الفلسفية واعتبرها سحابة تحجب الأنوار الساطعة التي يقدمها عالم اللاهوت^(٤).

تعلم أورجين اللغة العبرية وترجم التوراة ووضع شروحا لأسفارها وأتى الناس إليه من كل فج عميق ليتعلموا على يديه، وأرسلت الأمم في طلبه ليرشداهم إلى طريق الخلاص، وذهب إلى بلاد العرب ودرس في مدينة بصرى وزار روما عام ٢١٢م، ولما عاد إلى الإسكندرية نجح أعداؤه في إثارة

Hardy, Christian Egypt., New York, 1952, p. 13.

(١)

Eusebius, Op. Cit., p. 258 - 9.

(٢)

Eusebius, Op. Cit., p. 259 - 60.

(٣)

Hardy, Op. Cit., pp. 14 - 15.

(٤)

الإمبراطورية عليه فلجأ إلى نلسطين، فاستقبله أسقفا بيت المقدس وكيسارية بالترحاب، وسمح له بالوعظ التدريسي في كنائسها بصفة استثنائية، وقد جلب ذلك المتاعب إليه، حتى إنه حُرِمَ من رحمة الكنيسة، وفي مرحلة من مراحل الاضطهاد التي سادت البلاد، وكان ذلك في أواخر حياة أورجين قبض عليه عام ٢٥٠م، وسجن وعذب، ولم يفرج عنه (إلا عندما صاءت حالته الصحية، ثم مات بعد قليل في عام ٢٥٣م^(١)).

ومن علماء الإسكندرية الذين تولوا إدارة مدرستها ديديموس الضرير Didymus The Blind؛ وقد ولد في الإسكندرية عام ٣١٢م وهي السنة التي توفى فيها الاضطهاد ضد المسيحية بعد صدور مرسوم ميلان؛ وقد فقد بصره وهو في حوالي الرابعة من عمره؛ فاستعان بذاكرته وحفظ كل ما كان يسمعه، وقد تمكن من إتقان كثير من العلوم، وألم بالشعر والبلاغة والفلك والهندسة والفلسفة، بالإضافة إلى العلوم اللاهوتية.

ولم يتردد البطريرك اثاناسيوس Athanasius في إسناد مسئولية المدرسة اللاهوتية له لذكائه وقدرته على الاستيعاب، ودقة ملاحظته وعلو حجته؛ ويلاحظ أن ديديموس كان من أواخر أشهر مدرائها؛ فقد أفل نجم الإسكندرية من بعده. ومن تلاميذه القديس جيروم Jerome وريفيينوس Rifimus. وقد أكد جيروم على علو شأن ديديموس وقدرته على التعليم وأثره الكبير في علم اللاهوت في الشرق والغرب، وخلال هذه المرحلة كانت حركة الصراع بين الإثناسيوسية والأريوسية على أشدها، وكان التدريس محاطاً بالمشكلات من كل جانب خاصة بسبب تدخل الحكام المدنيين ضد الإثناسيوسية مما عرض بعضهم للنفي والاضطهاد، وقد صعد ديديموس في وجه هذه التيارات كلها، وجاهد بكل كوته ضد الأباطرة الذين ناصروا الأريوسية، كما حارب الوثنية التي بقيت متمثلة في الأفلاطونية الحديثة.

Eusebius, Op. Cit., pp. 237, 255.

(١)

وبوصف ديديموس بأنه كان مناضلاً شريفاً مهذباً ضد أعداء المسيحية، وركز جهوده في إقناعهم بقبولها.

كما اتصف بروح الاعتدال في منهجه؛ ومن أجل ذلك جاء إليه الجميع بكل طوائفهم ودياناتهم وفلسفتهم يطلبون العلم في مدرسته وعلى يديه، وذاع صيت ديديموس في الأتحاء كلها، ومدحه القديس أنطونيوس والقديس جيروم واقتخر الأخير بأنه أحد تلاميذه، واتخذ من منهجه قدوة لتدريس الكتاب المقدس، كما ترجم له أحد كتبه المتعلقة بروح القدس، وفي الوقت نفسه كان ديديموس سندا للبطريرك أنطاسيوس وحصناً قوياً للكنيسة المصرية تحطمت عليه الأريوسية بعد أن فند أخطائها جميعاً ومن مؤلفات ديديموس الكثيرة نذكر شرح أسفار إشعيا، وزكريا، وأيوب والأمثال ورسائل الجامعة كلها وله ثلاثة كتب عن الثالوث، وتعليق على مؤلفات أروجين وغير ذلك. وقد تأثر تفكيره وأسلوبه كثيراً بالقديس أنطاسيوس، والحقيقة أنه قد نجح كثيراً في أن يعيد لمدرسة الإسكندرية مجدها الذي عاشته أيام كلمنت وأروجين، وقد استمر في منصبه حتى وفاته في عام ٣٩٨م^(١).

أما عن العلاقة بين المدرستين المسيحية والوثنية، فالواقع أن المدرسة الوثنية كانت قد بلغت قممها في العلوم والفلسفة في القرون الأولى للمسيحية، ولم يكن يعانها في القيمة العلمية أية مدرسة في العالم تقوم بتدريس العلوم الطبيعية والطب والرياضيات والفلك؛ وكانت المدرسة اليونانية المتمثلة في أثينا قد تميزت بالدراسات الفلسفية المستقلة بعضها عن بعض على العكس من مدرسة الإسكندرية الوثنية التي جمعت هذه الفلسفات كلها معاً، وتدارسها الطلاب الذين اجتمعوا في أروقتها، كما أن مدرسة الإسكندرية أنشأت الأفلاطونية الحديثة وترعرت فيها الغنوصية.

(١) متى المسكين : القديس أنطاسيوس الرسولي - وادي النطرون - ١٩٨١م، ص ١٩١.

ومن هنا كانت مدرسة الإسكندرية الوثنية منافسًا قويًا لمدرسة الإسكندرية المسيحية الناشئة^(١).

وعلى الرغم من هذا كله عاشت المدرستان الوثنية والمسيحية جنبًا إلى جنب لكل منهما طابعها العلمي، وعكست الحالة الثقافية لمدينة الإسكندرية، وقد أثرت كل منهما بالأخرى وتأثرت، ولكن هدف التعليم كان مختلفًا تمامًا في المدرستين؛ فالتعليم في المدرسة الوثنية كان بقصد الإعداد لتولى المناصب الحكومية، بينما كان من أهداف التعليم في المدرسة المسيحية التعمق في الفكر المسيحي بصرف النظر عن الوظائف، وكانت الحياة الفاضلة من أبرز خواصها.

وهناك فارق آخر بين المدرستين هو أن طلاب المدرسة الوثنية كانوا ذكورًا فقط ومن مستوى اجتماعي رفيع، بينما كان التعليم في المدرسة المسيحية مفتوحًا للمواطنين جميعًا لا فرق بين غني وفقير أو ذكر أو أنثى بالإضافة إلى الفلاسفة الوثنيين والمهرطيين، ولذلك كانت المنافسة قوية، وأدت إلى ازدهار العلوم والفلسفة وعلوم الدين.

وكان من مزايا المدرسة المسيحية تعديل برامجها التعليمية كلما دعت الحاجة إلى مواكبة العصر، وحتى لا يشعر طلابها بأي نقص في أي نوع من أنواع العلوم أو المعارف، وطوعت العلوم الفلسفية لتكون خادمة للاهوت، وعلى المسيحي أن يزود نفسه بأنواع المعرفة كلها، ومن هنا ارتقت دراسة الفلسفة في المدرسة المسيحية حتى إن كثيرًا من الفلاسفة الوثنيين وغيرهم ومنهم بلوتارخ Plutarch كانوا من طلاب هذه المدرسة^(٢).

وإذا انتقلنا من مصر إلى الساحل السوري أو الساحل الشامي نجد عدة

(١) أمين الخولي وآخرون: تاريخ الحضارة المصرية - مكتبة مصر - (د.ت)، ج ٢،

ص ٢٤٢.

Eusebius, Op, Cit., p. 242.

(٢)

مدن ساحلية كانت مراكز حضارية أشعت على المنطقة بأسرها، ومن هذه المدن غزة التي تقع إلى الجنوب على الساحل وأقرب المدن الشامية إلى مصر. ولعل ما ساعد على ظهور هذه المدينة على الساحة الفكرية أن مدينة بيت المقدس كانت لا تزال تعاني من التخريب الذي لحق بها عام ٧٠م^(١). ومن الذين نبغوا في المدينة المؤرخ زوسيموس Zosimus؛ وهو مؤرخ وثقى ولد في قرية بيت إيل بجوار مدينة غزة، ومن أشهر ما كتبه كتاب التاريخ الجديد Historia Nova، وقد سجل في هذا الكتاب الأحداث التي تبدأ من عصر الإمبراطور أوغسطس (٢٧ ق.م - ١٤م) حتى عام ٤١٠م.

مع بعض التفاصيل عن مصر الإمبراطور دقلديانوس Diocletian (٢٨٤ - ٣٠٥م)^(٢)، وأهدى زوسيموس هذا الكتاب إلى الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني Theodosius II (٤٠٨ - ٤٥٠م)؛ وقد اعتمد في كتابه على من سبقوه من المؤرخين مثل يونايبوس Eunapius والمؤرخ المصري الطبيب أوليمبيودورس Olympiodorus^(٣).

وتكلم زوسيموس عن الإمبراطور ثيودوسيوس الأول (٣٧٩ - ٣٩٥م) عندما وصل إلى روما، وأعلن تعيين ابنه هونوريوس Honorius إمبراطور على غرب أوروبا (٣٩٥ - ٤٢٣م) ومقره مدينة روما، كما ذكر أنه عين القائد الجرمانى ستيلكو Stilicho قائدا لقوات الإمبراطورية في غرب الإمبراطورية، وأن الإمبراطور ترك ابنه تحت رعايته.

كما أن كتابات زوسيموس توضح معرفته بمدينة غزة وضواحيها، ولعل أهم ما يدونه زوسيموس حديثه عن تنظيمات الجيش البيزنطي؛ فقد ذكر أن الجيش كان يتكون من جزئين رئيسيين؛ الأول وهو العناصر المتحركة، والثاني

(١) Josephus, The Jewish War, penguin, 1969, pp. 276 ff.

(٢) Ostrogorsky, History of Byzantine State, Oxford, 1956, p. 22.

(٣) Bury, History of The Later Roman Empire, New York, 1954, p. 417.

قوات الحدود، وأضاف أن القوات البيزنطية الشرقية كانت تتكون من حوالي مائة ألف إلى مائة وخمسين ألف جندي وأشار أيضا إلى أن الإمبراطورية لم يكن لديها سياسة عسكرية ثابتة. ويلاحظ أن زوسيموس لم يتحدث عن حملات الإمبراطورية على إيطاليا التي وقعت في عامي ٢٠٤ و ٤٠٣م، وأنه انتقل من عام ٣٩٧ إلى عام ٤٠٥م^(١).

والحقيقة أن شهرة مدينة غزة في تلك المرحلة تعود بصورة رئيسة إلى مدرسة البلاغة التي ازدهرت في المدينة في القرن الخامس وأوائل السادس الميلادي. وواقع الحال أن مدرسة غزة قد تأثرت كثيرا بجو مدرسة الإسكندرية العلمي، كما كانت مدرسة غزة تتبادل البعثات الطلابية مع المراكز العلمية في مصر والشام كالإسكندرية ومدينة نيسارية القريبة منها.

ولم تقتصر البعثات على الطلاب فقط؛ بل شملت الأساتذة أيضا، وكان بعض الأساتذة في مدرسة غزة من الأفلاطونيين الحديثين، ولكن الأكثرية منهم دعوا أنفسهم بالسفطانيين المسيحيين، وكانت معظم مؤلفاتهم تتضمن شروحا للتوراة ورسائل ضد غير المسيحيين.

ويلاحظ أن مدينة غزة لم تشترك كثيرا في الخلاقات الكنسية التي ظهرت بسبب المذاهب الفكرية التي سادت تلك المرحلة؛ ويأتي على رأس هؤلاء العلماء بروكوبيوس الغزاوي Procopius وخوريسيوس الغزاوي Choricus^(٢). ومن الفلاسفة الوثنيين الذين اشتهروا في غزة بروفييري الغزاوي Prophyry of Gaza وقد ولد في مدينة سالونيك عام ٣٤٧م ومات حوالي عام ٤٢٠م. وعندما بلغ الخامسة والأربعين من عمره أصبح تلميذا في مدينة غزة، ثم أصبح بعد ثلاث سنوات أسقفا للمدينة وبقي لمدة خمسة وعشرين عاما في هذا المنصب، وعلى الرغم من أنه من مواليد سالونيك وكان له أخوة صغار وأنه

(١) Mango Cyril, Byzantium, 1980, p. 34, Bury, Op. Cit., p. 160 - 301.

(٢) فليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، بيروت ١٩٥٨م، ج ١، ص ٢٩٨ - ٣٩٩.

ورث من والده قدرًا كبيرًا من المال، إلا إنه غادر مسقط رأسه ونسب إلى مدينة غزة وعرف باسم بروفيروى الغزاوى.

وهو يعتبر من قادة الأتلاطونية الحديثة، وقد شن بروفيروى حملة شعواء على المسيحية كما أوضحها يوسابيوس القيسارى، كما أنه أشار إلى أوريجين وهاجمه بصرامة، وسجل أن آراءه تتعارض مع القوانين^(١).

وإذا انتقلنا من مدينة غزة إلى الشمال على الساحل الفلسطينى نجد مركزًا ثقافيًا آخر هو مدينة قيسارية، وترجع شهرة هذه المدينة فى تلك المرحلة إلى مدرستها المسيحية اللاهوتية، ومن المعروف أن أروجين قد زار هذه المدينة وألقى فيها عددًا من الدروس والعظات واستقبل استقبالًا حسنًا من رجال الدين فيها ورسموه كاهنًا^(٢).

ويبدو أن ما فعله أروجين كان نواة لمدرستها اللاهوتية، ومن الذين درسوا فى هذه المدرسة جريجورى تورماتورجس Thaumaturgus الكابادوكى الأصل الذى حضر إلى بيروت ودرس فيها أولاً ثم اتجه إلى قيسارية حيث درس على يد أوريجين ثم اعتنق المسيحية بتأثير أستاذه^(٣).

ومن مشاهير هذه المدينة بامفليوس Pamphilus؛ وهو من مواليد مدينة بيروت عام ٢١٠م، ولد درس فى مدرسة الإسكندرية، ثم قضى بقية عمره فى مدينة قيسارية حيث عين أسقفًا للمدينة، وقد درس فى مدرسة المدينة، وجمع عددًا كبيرًا من الكتب، ولام بدراسات مهمة على الإنجيل، وقد قبض عليه وسجن؛ وخلال فترة سجنه كتب رسالة دفاع عن أوريجين ولد استشهد بامفليوس ومجموعة من زملائه لتمسكه بالديانة المسيحية فى عام ٣٠٩م^(٤).

(١) Mango, Cyril, Op. Cit., p. 40.

(٢) Eusebius, Op. Cit., p. 263.

(٣) لليب حتى : المرجع السابق، ج ١، ص ٢٩٩.

(٤) Alrwater, Op. Cit., p. 263 - 4.

ومن علماء مدينة قيسارية يوسابيوس القيساري Eusebius؛ وقد ولد في هذه المدينة حوالي عام ٢٦٠م، وكان في شبابه مريدًا وتابعًا وصديقًا حميمًا لأستاذ بامفيلوس الذي ذاع صيته في تلك المرحلة، وقد ظل يوسابيوس ملازمًا لأستاذه حتى قبض عليهما بتهمة اعتناق الديانة المسيحية والدفاع عنها وظلا في السجن معًا حتى عام ٣٠٩م حيث استشهد بامفيلوس؛ وكان لهذا الحدث أثر كبير على يوسابيوس، وعندما أطلق سراحه ذهب إلى مدينة صور وسمى نفسه يوسابيوس بن بامفيلوس تكريمًا لأستاذه، وقد كتب كتابًا خاصًا للدفاع عن أوريجين، ثم كتب كتابًا آخر عن حياة أستاذه بامفيلوس وقد فقد الكتاب الأخير^(١).

ورحل يوسابيوس من صور إلى الإسكندرية في عام ٣١١م، وقد قبض عليه مرة أخرى وأودع السجن، وعندما أخرج عنه عاد إلى فلسطين في العام التالي، ثم ما لبث أن اعترف الإمبراطور قسطنطين بالديانة المسيحية، وفي عام ٣١٤م أصبح أسقفًا لمدينة قيسارية، وظل في هذا المنصب حتى مات عام ٣٣٩م أو ٣٤٠م.

وأثناء إقامة يوسابيوس في قيسارية في المرحلة الأخيرة، رحل إلى بيت المقدس وأطلع على الكتب الموجودة في مكتبة المدينة التي أسسها الأسقف الإسكندر، وقد اهتم يوسابيوس بالإمبراطور قسطنطين منذ تعيينه إمبراطورًا، كما اهتم بالنزاع الديني الذي دار بين أثناسيوس وأريوس.

وفي مجمع نيقية الذي ترأسه الإمبراطور قسطنطين -الذي عقد في عام ٣٢٥م- جلس يوسابيوس إلى جانب الإمبراطور، وحاول التوفيق بين آراء أريوس وأثناسيوس، ولكنه أدان في النهاية أريوس بشدة وناصر أثناسيوس، وكان يوسابيوس مناصرًا شديدًا للإمبراطور قسطنطين، وكان الإمبراطور يعرف

Eusebius, Op. Cit, pp. 11 - 12.

(١)

ذلك تمامًا، وقد عرض عليه الإمبراطور منصب رئيس أساقفة القسطنطينية، أو منصب أسقف مدينة أنطاكية ولكن يوسابيوس اعتذر عن القبول بكل تواضع^(١).

وحقيقة الأمر أن يوسابيوس كان على معرفة بعلوم زمانه؛ فدرس تاريخ الوثنية، وتاريخ الشرق القديم، والجغرافيا، والفلسفة والفلك، وقدم شروحًا لأسفار إشعيا والمزامير، وكان فصيحًا بليغًا، وكتب يوسابيوس كثيرًا من المصنفات التي اعترفت بها الطوائف المسيحية كلها على اختلاف مذاهبها؛ ومما كتبه مصنف عن حياة الإمبراطور قسطنطين، ويعد هذا الكتاب من أهم الكتب التي تناولت حياة قسطنطين، كما وضع كتابًا آخر يعرف باسم "الإعداد أو التحضير" ليظهر من خلاله أباطيل الوثنية، كما كتب "البرهان الإنجيلي" ليدافع به عن المسيحيين ضد مزاعم اليهود، ويعتبر كتاب تاريخ الكنيسة من أهم الكتب التي سجلها سطرها يوسابيوس واستحق عليه أن يسمى شيخ رجال الكنيسة.

وقد سجل في هذا الكتاب جميع الأحداث التي تلت ما ورد في العهد الجديد، وفيه صور الاضطهاد الذي حل بالمسيحيين، كما سجل لنا العقاب الإلهي الذي وقع على كل من اضطهدهم بدءًا باليهود مرورًا بالأباطرة الرومان والبيزنطيين، ويعتبر كتاب تاريخ الكنيسة هذا المصدر الرئيس لتاريخ الكنيسة منذ قيامها حتى عصر مولفه^(٢).

وفي مدينة قيسارية ظهر مؤرخ آخر هو بروكوبيوس Procopius الذي أرخ للفترة الزمنية التي حكمها الإمبراطور جستنيان Justinian (٥٢٧ - ٥٦٥م)، ودون الأعمال العظيمة التي قام بها القائد البيزنطي بلزاروس Belisarius في الشرق والغرب، وقد ولد بروكوبيوس في نهاية القرن الخامس الميلادي في مدينة قيسارية، أما تعليمه وسنى حياته الأولى فنحن لا نعرف عنها شيئًا، والمعروف أنه درس ليؤهل نفسه لوظيفة قانونية، لقد غادر مسقط رأسه وهو شاب صغير إلى مدينة القسطنطينية.

Ibid, pp. 11 - 13.

(١)

Eusebius, Op. Cit., pp. 7 - 8.

(٢)

وقد ظهر نبوغه في فترة مبكرة من حياته، ففي عام ٥٢٧م عين مستشاراً قانونياً وسكرتيراً خاصاً للقائد البيزنطي الشهير بلزارايوس، ومع بلزارايوس أصبح بروكوبيوس قريباً من السلطة والبلاط وعرف أسرار القصر وخبايا الحكم، ومن هذا الموقع أصبح للمؤرخ بروكوبيوس رؤية مهمة لتقديم مؤلفاته التاريخية التي امتدت حتى نهاية عصر الإمبراطور جستنيان^(١).

وخلال حياة بلزارايوس وحملاته في أفريقيا وإيطاليا والشرق كان بروكوبيوس يكاد يلزمه في هذه الحملات كلها، وأصبح شاهد عيان على الأحداث التي دونها في مؤلفاته؛ فقد صاحب بروكوبيوس القائد بلزارايوس في حملته العسكرية التي دارت في عام ٥٢٧م ضد الفرس في أعالي العراق.

وفي عام ٥٣٣م ذهب مع القوات البيزنطية التي قادها بلزارايوس ضد الوندال في شمال إفريقيا، ورحل معه إلى إيطاليا في عام ٥٣٦م لمحاربة القوط الشرقيين، وبذلك أصبح بروكوبيوس أفضل من يكتب عن تاريخ هذه الفترة وأسرارها.

وإلى جانب صداقته للقائد بلزارايوس كان على إطلاع دائم وواسع بكل ما يجري داخل القصر الإمبراطوري، وقريباً من جميع القادة الذين عاصروه، سواء أكانوا بيزنطيين أم أجانب، وبكل تنظيمات الإمبراطورية وأحوالها الاقتصادية والاجتماعية، ولعل هذا يدفعنا إلى القول بأن بروكوبيوس سوف يقدم لنا تاريخاً متكاملًا عن أحوال الإمبراطورية يمدح فيه ولي نعمته القائد بلزارايوس والإمبراطور جستنيان ولكننا نلاحظ أنه قدم لنا عكس ذلك في بعض الأحيان.

لقد قدم لنا بروكوبيوس في تاريخه هذا وجهات نظر ثلاث، حتى إن القارئ يجد بعض الصعوبة في التعامل معها، إن عمله الكبير تناول تاريخ الحروب التي خاضتها الإمبراطورية في آسيا وإفريقيا وأوروبا في سبعة كتب، ونلاحظ أن الأحداث لم ترد فيها مرتبة زمنياً؛ فقد تداخلت الأحداث بعضها في بعض؛ فبينما يتحدث عن حرب نجده يتكلم عن حرب ثانية وربما ثالثة.

Procopius, the Persian War, London, 1961, pp. 11.

(١)

لقد اختص الكتابين الأول والثاني بالحروب الفارسية، وتناول الثالث الحرب ضد الوندال في شمال إفريقيا، والرابع والخامس عن الحروب التي دارت ضد القوط في إيطاليا، والحقيقة المائلة أمامنا أن الإمبراطورية البيزنطية قد بذلت أقصى جهودها لاستعادة حدودها القديمة والأراضي التي استولى عليها البرابرة.

وكان الإمبراطور جستنيان تواقًا لإعادة مجد الإمبراطورية الرومانية باعتباره وريثًا لها، وتصبح الإمبراطورية هي أكبر القوى العالمية مرة أخرى، وقد تسبب ذلك في استهلاك موارد الدولة، ولكن عجلة التاريخ لم تعد إلى الوراء^(١).

وبلاحظ أن الأحداث التي وقعت في عصر الإمبراطور جستنيان كانت كثيرة للغاية ومعقدة بدرجة كبيرة، وأن ما سجله بروكوبيوس لا يزيد عن كونه تلخيصًا لأحداث عصره، أما عن تداخل الأحداث فإننا عندما نقرأ عن الحرب الفارسية نقرأ أيضًا داخل هذه الأحداث عن ثورة نيقا Nika التي وقعت في عام ٥٣٢م، والشىء نفسه عن الطاعون الذي أطاح بالمواطنين عام ٥٤٠م، وإن كان ذلك يعتبر عيبًا من وجهة نظر المؤرخين، إلا إنه يوضح لنا حرص بروكوبيوس على تسجيل الأحداث التي وقعت في عصره^(٢).

وبعد كتب الحروب التي سجلها بروكوبيوس، يقدم لنا كتابًا عرف باسم التاريخ السرى أو النواذر Anecdota؛ وفي هذا الكتاب نجده وقد حرر نفسه من الخوف وجلس يكتب بكل حرية بعيدًا عن الجمود وعن التاريخ وواقعية السياسة؛ لقد هاجم في هذا الكتاب الإمبراطور والإمبراطورة وصديقه بلزاريموس وزوجته دون رحمة، وقدم لنا صورة قائمة كانت مشرقة في كتبه الأولى.

ويرى بعض الدارسين في أيام بروكوبيوس بهذا العمل جريمة وعارًا لا

Procopius, Op. Cit., I, p. IX

(١)

Ibid, I, P. X-XI.

(٢)

مبرر له وفضيحة للحياة الخاصة، ويرون أيضاً أن ما كتبه بعيداً عن الواقع ولا يمكن تصديقه؛ وقدم لنا بروكوبيوس كتاباً عن العمارة سجل فيه ما بناه الإمبراطور دون إطراء، وهو ينقسم إلى ستة أقسام صغيرة قدم فيها ما شيده الإمبراطور جستنيان من المباني العامة طوال فترة حكمه في جميع نواحي الإمبراطورية، وقد تم اختيار الموضوعات بعناية كبيرة، وتقدم لنا جانباً حضارياً في غاية الأهمية^(١).

وقدم لنا بروكوبيوس هذا كله في أسلوب واضح وبسيط يوضح لنا معرفته بفتون البلاغة، لقد كان بروكوبيوس معجباً بالكتاب الكلاسيكيين؛ ومن هؤلاء هيرودوت وثوكيديدس Thucydides، واستعار بعض تعبيراتهم في كتاباته.

لقد كتب بروكوبيوس كمؤرخ مسيحي، ولكنه كان متعاطفاً مع الديانات الأخرى خاصة اليونانية القديمة؛ وما لا شك فيه أن دراساته للكتب الكلاسيكية قد أثرت فيه كثيراً.

وتوفي بروكوبيوس بعد الإمبراطور جستنيان بقليل، ويقال إنه توفي في العام نفسه الذي توفي فيه الإمبراطور أي عام ٥٦٥م^(٢). ومن المراكز الثقافية على الساحل السوري مدينة بيروت، وكانت قد أصبحت منذ أوائل القرن الثالث الميلادي مركزاً لتعليم القوانين ونشرها، ويرجع ذلك إلى أنه كان للمدينة مكانة تجارية واسعة وحركة مالية كبيرة بحكم موقعها الجغرافي ومرافأها.

وقد ترتب على ذلك خلافات قانونية حول هذه المسائل التجارية، وإقامة دعاوى قانونية استهوت كبار المحامين وأشهر الأساتذة الأمر الذي ترتب عليه إقامة مدرسة للحقوق، لتخريج الكوادر اللازمة لمثل هذه الأعمال.

وقد جذب ذلك الشباب الطموحين ومن تنوّر لهم علاقات اجتماعية

Procopius, Op. Cit., I, p. XI.

(١)

Procopius, Op. Cit, I, p. XIII.

(٢)

مفيدة، فقد كان القانون أكثر المهن تبشيراً بالنجاح، وكان بإمكان المحامي الذي يعمل لحسابه الخاص أن يجمع مبالغ كبيرة من المال، وأن يصل إلى مركز اجتماعي مرموق، يضاف إلى ذلك أن دراسة القانون كانت أمراً ذا أهمية كبيرة بالنسبة للحكومة، لذلك لم يُسمح بتدريسه في المعاهد الخاصة كما كان الحال من قبل، ولم يكن يوجد في مصر أو بلاد الشام سوى مدرسة واحدة مشهورة للحقوق هي مدرسة بيروت.

وقد بلغت مدرسة الحقوق في بيروت قمة ازدهارها في القرن الخامس الميلادي عندما جذبت إليها جماعة من خيرة المفكرين الشبان في الإمبراطورية، ولم تكن مدرسة القسطنطينية التي أسست عام ٤٢٥م تعتبر منافسة لها، وقد وردت أول إشارة إلى مدرسة الحقوق في بيروت في خطبة جريجوري تورماتوجوس التي ألقاها حوالي ٢٤٠م.

وكان قد أتى من كبادوكيا في آسيا الصغرى ليدرس في بيروت أولاً، وبعدها توجه إلى قيسارية فلسطين حيث اعتنق المسيحية على يدي معلمه أوريجين السكندري، ومن مشاهير هذه المدرسة أيضاً بامفليوس البيروتي^(١).

وإلى جانب هؤلاء يوجد جريجوري نازيانزوس Nanzanzus (٣٢٩-٣٨٩م)، الذي يعتبر من أشهر رجال الدين في عصره، وقد نال تسطاً كبيراً من التعليم في آسيا الصغرى ثم في مدارس أثينا حوالي عام ٣٥٦م.

وأخيراً فضل الإقامة في بيروت لمتابعة دراسته القانونية، وفي عام ٣٦٢م أصبح كاهناً وكان ذلك ضد رغبته، وفي عام ٣٧٢م أصبح أسقفاً، ثم تولى الأسقفية في مدينة القسطنطينية عام ٣٨٠م، وقد انسحب من الحياة العامة وعاش بقية حياته بالقرب من مسقط رأسه في كبادوكيا^(٢).

ومن أشهر هؤلاء شهرة سيفريوس بطريرك أنطاكية اليعقوبي (٥١٢ -

Atrwater, Op. Cit., pp. 263 - 4.

(١)

Ibid, pp. 160 - 1.

(٢)

٥١٨م) الذي هرب من المدينة بعدما هددته السلطات بتقطع لسانه لجرأته في الحديث، والذي وصفه بطريرك الإسكندرية ثيودوسيوس بأنه صخرة السيد المسيح، وحارس الإيمان السليم الذي لا يهتز^(١).

وكانت مدة الدراسة في مدرسة الحقوق أربع سنوات، ثم أضاف إليها الإمبراطور جستنيان في العام الأول لتوليته الحكم (٥٢٧م) سنة خامسة وكان الطلاب المقيدون بها يعفون من الخدمة العسكرية حتى سن الخامسة والعشرين^(٢).

وكان الالتحاق بالمدرسة يتطلب دراسة تمهيدية في اللغة اليونانية واللاتينية وفي الخطابة، وكان الطلاب يحصلون ذلك في مدنهم أو في مدرسة بيروت، وكان نظام المدرسة يحدد سن الطلاب؛ فيقبل الطلاب بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين، ويستثنى من ذلك الطلاب العرب^(٣).

وفي السنة الأولى كان الطالب يدرس مجموعات القوانين لجايوس Gaius وأولبيان Ulpian، وفي السنة الثانية يدرس قوانين أخرى لأولبيان، ثم يتنقل إلى كتابات بابنيان Papinian، ثم كتابات باولس Paulus في السنة الرابعة، أما السنة الخامسة فكانت لدراسة الدساتير أو القرارات الإمبراطورية التي جمعت في نهاية القرن الثالث الميلادي^(٤).

وكان بالمدرسة جمعيات اهتمت بعلوم الغيب والسحر، وجمعية أخرى مسيحية، كانت تجتمع كل مساء في الكنيسة لدراسة المؤلفات الدينية. كما كانت

^(١) Zachariah of Mitylene, The Syriac Chronicle, tran Hamilton, London, 1899, pp. 190 - 283.

^(٢) نليب حتى : المرجع السابق، ج ١، ص ٣٩٩.

^(٣) Attwater, Op. Cit., pp. 263 - 4.

^(٤) دواتي : لخطابية في عهد ثيودوسيوس الكبير، ترجمة ألبرت بطرس، بيروت ١٩٦٨م، ص ١١٠.

الدراسة تعطل بعد ظهر كل يوم سبت وطوال نهار الأحد، أما ساعات المساء فقد كانت خالية من الدروس ليتمكن الطلاب من استيعاب ما درسوه أثناء النهار^(١).

وقد لمعت في القرون المسيحية الأولى طائفة من أساتذة القانون واستحقوا أن يطلق عليهم لقب أساتذة العالم؛ واشتهرت بيروت بفضل هؤلاء ورفعت إلى مستوى الحواضر، وسميت بأسماء كثيرة مثل أم العلوم، ومواطن العلماء، ومنبع الشرائع، وزاد من شرف الأساتذة أن أصبحوا يعينون في المدرسة بموجب مرسوم يوافق عليه مجلس شيوخ المدينة، واشترط الإمبراطور جوليان (Jolian) (٣٦١ - ٣٦٣م) أن يعرض عليه المرسوم قبل التنفيذ.

ومنذ عام ٤٢٥م أصبحت الدولة تتولى نفقات الأساتذة جميعاً وتوفد الطلاب على مدرسة بيروت من جهات العالم كلها مثل غزة، وعسقلان، وأنطاكية، والرها، وسيساط ومدن الشام وللسطين كلها وغير هؤلاء من مصر وأسبانيا وإيطاليا والبلقان وآسيا الصغرى^(٢).

وقد ظلت المدرسة تمارس نشاطها حتى نهاية النصف الأول من القرن السادس الميلادي، حين داهمت المدينة سلسلة من الهزات الأرضية في الفترة من ٥٥١ إلى ٥٥٥م كانت تقضى عليها، وهدم الزلزال التي تعرضت له مدينة بيروت عام ٥٥١م، جانباً كبيراً من مبانيها^(٣).

فانتقلت المدرسة إلى مدينة صيدا لبعض الوقت، وفي عام ٥٦٠م تم إقامة المدرسة مرة أخرى، وقبل حفل الافتتاح بقليل شبت النيران فيها وأتت عليها، ولم يعد يذكر عن المدرسة شيء بعد ذلك^(٤).

ومن ذلك يتضح أن مدينة بيروت بفضل مدرستها القانونية قد شهدت نهضة علمية كبرى أثرت قوانين الإمبراطورية البيزنطية، فقد علم في تلك

(١) ليد رستم : للروم، ج ١، ص ١٥٨.

(٢) ليد رستم : للروم، ج ١، ص ١٥٨.

(٣) Antorus Martyr, Theo Holy Places, in P.P.T.S. London, 1890, Vol. 3, p. 2.

(٤) نليب حتى : للمصدر السابق، ج ١، ص ٤٠١ - ٤٠٢.

المدرسة أكبر أساتذة القانون في تلك الحقبة وأشهرهم، كما تتلمذ فيها كبار رجال الفكر الذين أتوا إليها من أنحاء آسيا وأوروبا وإفريقيا كلها وكانت مركزاً حضارياً أشع على المنطقة بأسرها.

وإذا تحركنا من بيروت إلى الشمال نجد مدينة أنطاكية، وهي المركز الثقافي الأخير في هذا البحث، وسوف نتعرض لثلاث شخصيات كان لها أكبر الأثر على الفكر المعاصر في المنطقة، وربما استمر هذا الأثر حتى الآن، وأولى هذه الشخصيات المؤرخ أميانوس مارسيلينوس *Ammianus Marcellinus* والثاني هو المفكر الوثني ليبانيوس *Libanius*، والثالث المفكر المسيحي يوحنا فم الذهب *John Chrysostom* ومعلوماتنا عن المؤرخ أميانوس مارسيلينوس (٣٣٠ - ٤١٠م) مستمدة تقريباً من كتاباته؛ فقد ولد في عام ٣٣٠م في مدينة أنطاكية لعائلة يونانية وثنية.

وتلقى تعليمه في المراحل الأولى في مدينة أنطاكية نفسها التي تعتبر من المدن الرئيسة في الإمبراطورية الرومانية، وكان أميانوس يفخر بمدينته التي اجتمعت فيها أخلاط الناس من يونانيين ويهود وسوريين وآخرين جمعهم عز المدينة وثراؤها، وقد أطلق أميانوس على مدينته لقب تاج الشرق الجميل^(١). وقد عاصر أميانوس مجموعة من الأباطرة البيزنطيين هم قسطنطينوس *Constantinus* (٣٢٧ - ٣٦١م) وجوليان المرتد وجوفيان *Jovian* (٣٦٣ - ٣٦٤م) وفالنتز *Valens* (٣٦٤ - ٣٧٨م)، وكان نجم الإمبراطورية قد أخذ في الأكل، وكانت نقطة التحول هي الكارثة التي حلت بالإمبراطورية بعد هزيمة قواتها في معركة أدرنة *Adrianople* عام ٣٧٨م على أيدي القوط، ولقى فيها الإمبراطور فالنتز مصرعه، وهي المرحلة التي تتف فيها كتابه المعروف باسم التواريخ *The Histories*.

^(١) *Ammianus Marcellinus, Rerum Gestarum, Iran, Rolff, 11, 251. Creat Britain, 1971, Vol. 11, p. 251.*

لقد التحق أميانوس في شبابه بالسلك العسكري الإمبراطوري وأصبح أحد القادة المهمين، وقد رافق الإمبراطور جوليان في بعض عملياته العسكرية في الشرق والغرب، وقد مكنت هذه الانتقالات أميانوس من الاطلاع على بواطن الأمور داخل الإمبراطورية، وأسرار البلاط والدولة، وأسباب المعارك التي خاضتها الإمبراطورية في آسيا وأوربا خاصة ضد الفرس والعناصر الجرمانية ونتائجها.

وفي عام ٣٦٣م، وبعد موت الإمبراطور جوليان عاد أميانوس مع قواته إلى أنطاكية، وظل بها حتى معركة أدرنة (٣٧٨م)، وقد زار أميانوس خلال هذه الفترة مدينة الإسكندرية، وبلاد اليونان و إيطاليا خاصة مدينة روما، وأثناء إقامته في أنطاكية اطلع على كثير من الكتب التاريخية، وربما شغله منصبه في بداية الأمر بعض الوقت عن القراءة، لكنه خصص الفترة الأخيرة من حياته للدراسة والكتابة، وممن قرأ لهم وتأثر بهم تاكيتوس Tacitus و ليفي Livy، وما كتبه أميانوس يعتبر مكملاً لكتاب تاكيتوس الذي انتهى في عام ١٢٠م^(١).

وقد بدأ أميانوس كتابة مؤلفاته في مدينة روما، وعلى الرغم من أنه كان وثيقاً إلا إنه كان معتدلاً في موقفه من المسيحية، ولم يؤثر ذلك على كتاباته ونظراته الموضوعية للأحداث، والمؤلف الذي قدمه أميانوس يتناول الفترة من ٩٦ إلى ٣٧٨م، وهو مقسم إلى واحد وثلاثين فصلاً، وقد فقد من الكتاب جزءاً يبدأ من الفصل الأول حتى الفصل الثالث والعشرين، ولم يتبق إلا الأجزاء الأخيرة التي تشمل الفترة من ٣٥٣ إلى ٣٧٨م وقد سجل أميانوس مؤلفه بلغة لاتينية فصيحة، ويعتبر كتابه من المصادر التاريخية المهمة للحقبة التاريخية التي سجل لها.

ومن علماء مدينة إنطاكية لبيانيوس (٣١٤ - ٣٩٣م) الفيلسوف والبلوغ

Tacitus, The Agricolis and Germaniam Penguin, 1970, p. 10.

(١)

الوثني، وقد ولد في بيت وثني مشهور في المدينة ينحدر من بيت علمي تفوق أفراده لعدة أجيال سابقة في مجال العلوم والثقافة والخدمة العامة للمدينة، وقد تم لبيانيوس دراسته الكلاسيكية الأولى في مسقط رأسه، وعندما بلغ عامه الثاني والعشرين رحل إلى أثينا لاستكمال التحصيل العلمي، فقد كانت أثينا في تلك المرحلة من أعظم مراكز الدراسات العليا في الفلسفة والآداب في العالم.

وقد قضى لبيانيوس أربع سنوات في أثينا (٣٣٦ - ٣٤٠م)، سافر بعدها إلى القسطنطينية، وبدأ بتعليم البلاغة، لكن المناسبات الشديدة بين الأساتذة دفعت به إلى الرحيل إلى مدينة نيقية حيث درس لبعض الوقت، ثم رحل مرة أخرى في عام ٣٤٦م إلى مدينة نيقوميديا حيث قضى خمس سنوات، ثم عاد مرة أخرى إلى القسطنطينية، فعمل بها عددًا من السنين، وفي عام ٣٥٤م عاد إلى مسقط رأسه أنطاكية بعد أن أصبحت له مكانة عالية في عالم العلم، وتعرف على كثير من علماء عصره، كما حظى بشرف صداقة كبار الشخصيات في الإمبراطورية والأباطرة^(١).

وقد صدم لبيانيوس بعد عودته إلى أنطاكية، لأن المسيحيين كانوا يرفضون إرسال أبنائهم ليتعلموا على أيدي المدرسين الوثنيين، بعد أن نعت المسيحية وساندها الحكومة الإمبراطورية.

وقد اهتم لبيانيوس بعد عودته إلى أنطاكية بكتابة أهم أعماله وأكثرها شهرة وهو كتاب مديح أنطاكية أو الإنطاكية Antiochikos، وقد أعد لبيانيوس كتابه هذا لتلقى كلماته في الاحتفال بالألعاب الأولمبية عام ٣٥٦م، وهو الاحتفال الذي كان يحضره كبار الشخصيات والزوار من أنحاء العالم كافة.

وفي الحقيقة أن الأنطاكية تاريخ للمدينة ومديح لها بصفتها مدينة يونانية وثنية تواجه نمو المسيحية، وقد اعتبر لبيانيوس أن بلاغة أنطاكية، أي بلاغة أصلها فضيلة من أهم فضائل المدينة، وكان يرى أن البلاغة عقل أي مدينة، وأن

^(١) قلب حتى : للمصدر السابق، ج ١، ص ٣٩٣.

الثقافة اليونانية تعتبر معياراً للحضارة^(١)، لذلك لم يهتم بتعليم اللاتينية، وابتعد عن المسيحية وعدها عدوة للحضارة^(٢).

وتقدم لنا كتابات ليبانيوس، التي وصلتنا، ومعظمها من الخطب والرسائل، صورة واقعية للأزمة والأمكنة التي عاش فيها، وتقدم لنا صورة طيبة للأساليب التربوية في مدارس أنطاكية؛ فقد كانت الدراسة تستمر طوال الشتاء والربيع، أما الصيف فكان يخصص للنشاط المرتبط بالاحتفالات والأعياد، وكانت الدروس تبدأ من الصباح حتى ظهر اليوم، وكان بعض التلاميذ في السادسة عشرة وكان التعليم العالي في أيدي البلغاء، وكان هؤلاء ينتخبون كأساتذة من مجلس شيوخ المدينة.

وكان هؤلاء البلغاء يعلمون ويخطبون ليكونوا مثلاً وقدوة للطلاب، وتقاضى هؤلاء البلغاء مرتباتهم من مجلس شيوخ المدينة ومن الطلاب، وقد شكلت العلوم الكلاسيكية اليونانية نواة للمنهج الدراسي، ولم يدرس اللاتينية سوى من كان يرغب في الحصول على وظيفة حكومية^(٣).

ويظهر تعصب ليبانيوس لمدينة أنطاكية الوثنية عندما اعتبر اللغة اليونانية والثقافة اليونانية معيار الانتماء للمدينة، وقد تناسى ليبانيوس عد عناصر أخرى تتألى مع مفهوم المدينة اليونانية، كالعناصر السامية التي كانت ظاهرة في المدينة منذ نشأتها، وكانت اللغة السريانية تسمع في شوارع المدينة كلها. وكان هناك عدد كبير من الناس في المدينة وحولها لا يعرفون اللغة اليونانية، هذا بالإضافة إلى أن عصر ليبانيوس كان يمثل قمة التفاعل بين الوثنية والمسيحية، ولم يكن بوسعهم أن يتفهم العقيدة الجديدة، وأسلوب الحياة الجديد في المجتمع الأنطاكي^(٤).

^(١) نواتي : المرجع السابق، ص ١٥٣.

^(٢) فليب حتى : المرجع السابق، ج ١، ص ٣٩٣.

^(٣) نواتي : المرجع السابق، ص ١٥٣.

^(٤) نواتي : المرجع السابق، ص ١٥٩، ١٦٥، أسد رستم، المرجع السابق، ج ١، ص ١١٤.

وعلى الرغم من هذا كله فقد سعى لبيانيوس إلى القيام بدوره بطريقتين، الأولى كمعلم للتقاليد اليونانية الوثنية، والثانية كمواطن بارز ناطق باسم المجتمع الذى حافظ على فضائل المدينة بتقاليدها القديمة، واعتبر أن فضيلة المدينة وقوتها، وكذلك الفضيلة التى تسبغها المدينة على مواطنيها، متصلة بجذور من الماضى دون أن تصاب بتغيير جوهري.

وعلى الرغم من وجود الإمبراطورية البيزنطية وتقدم المسيحية الذى هدد بقاء الوثنية. كان لبيانيوس دائم اليقظة لحماية العدالة لدى المجتمع، ومن خطابه أو منشوراته تظهر إنسانيته الشديدة واهتمامه بالمحافظة على النظام، والطبقات العاملة مثل المزارعين والخبازين وصغار التجار، يضاف إلى ذلك المتهمين الذين ينتظرون المحاكمة، وأشار إلى ضرورة إقامة العدل الصحيح عند متولهم أمام القضاء.

والحقيقة أن الإصمان حتى عصر لبيانيوس كان هو العنصر الرئيس فى نظرة المسيحية والوثنية إلى المجتمع، وكانت الحضارة اليونانية التى تعصب لها لبيانيوس هى حضارة الفرد، أما المسيحية فكانت دين تغيير حضارة الفرد، واعتقد لبيانيوس أن ما يراه هو النوع الذى يجب أن يكتب له البقاء^(١).

وإذا كان لبيانيوس، يعتبر الممثل الأخير للثقافة الوثنية القديمة فى مدينة أنطاكية، فإن تلميذه يوحنا لم الذهب لد اكتسب شهرة كبيرة باعتباره أحد المبشرين العظام بالديانة المسيحية، وقد اكتسب لقب لم الذهب لأنه كان يملك موهبة الفصاحة الرائعة، وهى موهبة نادرة ما وجدت عند الواعظين المسيحيين، سواء من سبقه منهم أم من أتوا بعده^(٢).

ولد يوحنا لم الذهب (٣٤٥ - ٤١٧م) فى أنطاكية من أبوين مسيحيين كانت لهما مكانة مرموقة فى المدينة، فكان والده من أصل نبيل، بدأ حياته لدى

(١) دوائى : المرجع السابق، ص ١٥٥.

(٢) دوائى : المرجع السابق، ص ١٥٩، ١٦٥، أسد رستم، المرجع السابق، ج ١، ص ١١٤.

الخدمة المدنية بالإمبراطورية ثم رقى بسبب كفاءته، ولكنه توفى صغير السن
ترك ولده الوحيد في رعاية والدته الأرملة، وما ورثته الوالدة مكنها من إرسال
ابنها يوحنا إلى كبار المعلمين في أنطاكية ومن بينهم أندراجاثيوس الذى علمه
الفلسفة، وليبانيوس الذى علمه البلاغة.

وكان الأخير يرى فى يوحنا خير خلف له^(١)، وكان يوحنا يمتلك موهبة
كبيرة فى الأدب والبلاغة، وقد شعر هو بذلك، ورأى استخدام هذه المواهب فى
الخدمة المدنية، وقرر أن يدرس القانون، كما انضم إلى الحلقات الدراسية التى
كان يعقدها أسقف المدينة، حيث كان الشبان يجتمعون فى حلقات لاهوتية، وكان
رجال الدين يرعون من يرجى منهم الخير لتشجيعهم على الدخول فى السلك
الكنهوتى.

وقد تقدم يوحنا فى علومه حتى وصل إلى الحد الذى يؤهله للعماد،
ووصل بعد ثلاث سنوات إلى درجة مرتل داخل الكنيسة^(٢)، وانسحب إلى كهف
فى الجبل المطل على المدينة لبعض الوقت للصلاة والتأمل، وعاش إلى جانب
ناسك عجوز يدعى سيروس Cytus مدة أربع سنوات، تعلم منه فيها الحكمة،
ودرب نفسه خلال هذه الفترة على التحكم فى رغباته عن طريق السيطرة على
الجسد، والخلوة، وتناول قليل من الطعام، والصلاة المتواصلة.

وقد عاد يوحنا إلى أنطاكية عام ٣٨٠م، بعد أن تغير تمامًا كما كان
يأمل، وشعر أنه مستعد لتكريس ذاته لخدمة المسيحية^(٣)، وفى العام التالى رسم
شمامسة^(٤)، وبعد خمس سنوات رفع إلى درجة الكهنوت وأصبح عضوًا فى هيئة
الكندرانية حيث كان يقوم بالوعظ، ويشارك فى الأعمال الرعوية المختلفة التى
قامت حول الكنيسة الرئيسية فى المدينة^(٥).

(١) أسد رستم : المرجع السابق، ج ١، ص ١٢٢.

(٢) دولتى : المرجع السابق، ج ١، ص ١١٢.

(٣) أسد رستم : المرجع السابق، ج ١، ص ١١٢.

(٤) دولتى : المرجع السابق، ج ١، ص ١٢٨.

وخلال هذه المرحلة لم تكن الوثنية قد انقرضت تمامًا، بل على العكس، أظهرت صلابة شديدة لى أنحاء كثيرة من الإمبراطورية فى مواجهة المسيحية، وكانت مدينة أنطاكية أهم المعاقل الوثنية، على الرغم من قيام الإمبراطور بإصدار سلسلة من الأوامر تمنع إقامة العبادات الوثنية، ولكن تنفيذ هذه الأوامر كان مؤقتًا.

ثم ما لبثت أن أصبحت حبراً على ورق، على الرغم من هذا كله فقد كان على مواطنى أنطاكية وغيرهم من مسيحيين ووثنيين أن يتعايشوا فى عالم واحد، والمشاركة فى ثقافة مادية واحدة، وفى أعمال ومهن يومية مشتركة، يضاف إلى ذلك أن يوحنا كان قد نما وترعرع أثناء فترة الخلاف الدينى بين أريوس وأثناسيوس^(١)، وهو الخلاف الذى قسم الجزء الشرقى من الإمبراطورية إلى قسمين.

وكان لذلك أثر كبير على مدينة أنطاكية، فقد كان يوحنا ومعاصروه يذكرون زماناً كانت الأريوسية فيه الشغل الشاغل لأهل أنطاكية، لأن المدينة نفسها كانت إحدى معاقل الأريوسية^(٢).

وقد أدرك يوحنا مدى الحاجة إلى التعاليم المسيحية من الأوجاع كلها وعلى المستويات كافة، ورأى أن فى إلقاء العظات خير وسيلة لذلك وهى وسيلة ليست سهلة، ولكن يوحنا كان مؤهلاً لها، فقد ضمت جماعة المصلين لى كنيسة أنطاكية مسيحيين من المستويات الثقافية كلها ابتداء من كونت الشرق إلى المزارعين والصناع والعيبد، يضاف إلى هؤلاء جماعات من الوثنيين الذين كانوا يفدون إلى الكنيسة خلسة ليعلموا شيئاً عن الديانة المسيحية.

واتصبت عظات يوحنا على التعليم الأخلاقى^(٣)؛ فقد كان المسيحيون يعيشون جنباً إلى جنب مع الوثنيين، شركائهم فى المواطنة، وكانوا فى بعض

^(١) متى المسكين : المرجع السابق، ص ٤٧٣ - ٤٧٦.

^(٢) دوائى : للمرجع السابق، ص ١٨٢.

Atwater, Op. Cit., p. 190.

^(٣)

الأحيان أقارب الوثنيين الذين علمتهم ثقافتهم أن غاية الإنسان على الأرض هي المتعة الجسدية، والنجاح المادى، وأن جسد الإنسان وسيلة مبهجة من وسائل المتعة.

كما أدرك يوحنا أن تعليم الأطفال وتفهم حاجاتهم أمر يُبالغ الأهمية. وأدرك أن أهم مراحل تعليم الأطفال تبدأ من المنزل، وأن السنوات الأولى هي التى تشكل عقل الطفل^(١). وبالإضافة إلى الوعظ أدرك يوحنا مسئولية المشاركة الإيجابية فى عمل الإحسان الذى كانت الكنائس جميعها مراكز له فى تلك المرحلة.

على العكس من الدولة أيام الإمبراطورية الوثنية التى لم يكن لها أية مسئولية تجاه المواطنين لتخفيف آلام الفقر أو البطالة أو العناية بالمرضى، وكان على الكنائس أيضاً رعاية الأرمال واليتامى والغرباء^(٢)، وفى عام ٣٨٦م رفع يوحنا إلى رتبة كاهن، وفى السنة التالية اضطرت حكومة الإمبراطورية إلى زيادة الضرائب لإعادة بناء الجيش الإمبراطورى بعد الهزيمة التى لحقت به فى معركة أدرنة (٣٧٨م) على أيدي القوط.

فانفجرت ثورة أنطاكية احتجاجاً على زيادة الضرائب، واتجه الأهالى إلى حاكم المدينة ولكنه لم يستجب لطلباتهم، فاتجهوا إلى أسقف المدينة ولكنه لم يكن موجوداً، واشتعلت الثورة وتسببت فى إشعال بعض الحرائق، وانتهى الأمر مؤقتاً باعتقال المتظاهرين^(٣).

وأدرك رجال الدين فى أنطاكية وعلى رأسهم أسقف المدينة حاجة الناس إلى المواساة، وقرر الاتجاه إلى القسطنطينية ليتوسط لدى الإمبراطور، وكبل المغادرة اختار يوحنا قم الذهب بصنفته أتصح الكهنة ليلقى فى الكنيسة سلسلة من العظات حول هذه الكارثة.

^(١) نواتى : للمرجع السابق، ص ١٩٠.

^(٢) أسد رستم : المرجع السابق، ج ١، ص ١١٤.

^(٣) نواتى : للمرجع السابق، ص ٢٠١.

وانتهى الأمر بصفح الإمبراطور عن المدينة وإلغاء العقوبات التي نزلت بها عليها، وعندما توفي بطريرك القسطنطينية نكتاريوس (Nawctarius 381-397م) وقع الاختيار على يوحنا ليتولى منصب البطريرك (398 - 404م)، وعندما وصل يوحنا فم الذهب إلى العاصمة بدأ الاهتمام بشئون الفقراء والمساكين، وحث الرهبان على العمل المثمر.

وهاجم إسراف رجال البلاط وبذخهم وندد بهم، وفم تتج الإمبراطورة يودكسيا Eudoxia من ذلك، وعند هذه المرحلة اجتمع الحائدون عليه ودعوا الإمبراطور إلى عقد مجمع ديني للنظر في أمره، فعقد مجمع عرف باسم مجمع البلوطة Oak بالقرب من مدينة خلدونية 403م.

ورفض يوحنا المثول في هذا المجمع، فحرم من رحمة الكنيسة، وحكم عليه الإمبراطور بالنفي ورفض الشعب ذلك فتدخلت قوات الإمبراطورية وتجنبا للصدام وافق يوحنا على الخروج متفيا من المدينة، ولكن الإمبراطور ما لبث أن أعاده إلى منصبه، ولكنه عاد ونكل بالإمبراطورة مرة أخرى، وانتهت الأحداث بنفيه مرة أخرى في عام 404م إلى جبال طوروس، وظل في منفاه ثلاث سنوات كتب فيها كثيرا من المؤلفات، وقد نقل من منفاه إلى منفى آخر في إيبيريا عند البحر الأسود لرحل إليه.

وأثناء رحيله وعند وصوله إلى مدينه كوماتة توفي عام 407م⁽¹⁾، وهناك عدد من الفلاسفة والبلغاء وأصحاب الفكر الوثني والمسيحي درسوا في هذه المراكز الثقافية في مصر والشام لا يتسع المجال في هذا البحث للحديث عنهم، وأكتفى هنا بذكر نسطوريوس Nestorius، صاحب المذهب النسطوري المسيحي الذي درس في أنطاكية، وأصبح بطريرك الإمبراطورية البيزنطية في القسطنطينية (428 - 431م) والذي عزل من منصبه بموجب قرارات مجمع أنسوس (431م)، وقد نفى بعدها إلى مصر، وظل بها حتى وفاته⁽²⁾.

(1) Attwater, Op. Cit., p. 198. انظر أيضا: أسد رستم : المرجع السابق، ج 1، ص 115.

(2) ينشر : تاريخ الأمة القبطية - تمريب إسكلدر تانرس، مطبعة مصر، النجالة، 1901م،

ج ٢، ص 24 - 25. Hussey, Op. Cit., p. 20.

مما سبق يتضح أنه كانت توجد مجموعة من المراكز الحضارية مختلفة الجوانب فى مصر والشام أثرت فى الحياة الثقافية فى القرون المسيحية الأولى، وأن العلماء الذين قامت على أكتانهم هذه المراكز كانوا من الوثنيين والمسيحيين، ولم يقتصر تحصيلهم للعلم على مركز واحد، بل إن معظمهم درس فى أكثر من مركز ثقافى سواء فى مصر أم الشام أم القسطنطينية أم أثينا.

كما أن العلماء الوثنيين الذين تمسكوا بعتيقتهم كان لهم طلاب تتلمذوا على أيديهم ثم اعتنقوا المسيحية ولعبوا دوراً كبيراً فى صياغة الفكر المسيحي فى تلك المرحلة. ومن نتائج هذا البحث أيضاً أن الوثنية اهتمت بالفرد، بينما اهتمت المسيحية بالجماعة.

وأن الإمبراطورية الوثنية تعاملت مع اليهودية كدين، بينما تعاملت مع المسيحية فى بداية أمرها كمذهب سياسى معاد للإمبراطورية، ومن النتائج أيضاً أن مصر خرجت من الصراع الدينى بوحدة دينية متماسكة، وأنه كان لعصر مدرسة كبيرة واحدة، وهى مدرسة الإسكندرية.

بينما نجد أن النظام اليونانى كان له أثره الكبير على بلاد الشام -ربما حتى يومنا هذا- بدليل أننا نجد أن كل مدينة كانت تعتبر دولة فى حضارتها وثقافتها.

ونستنتج أيضاً أن مصر لم تتأثر بأى مذهب من المذاهب المسيحية التى سادت المنطقة فى تلك المرحلة، والدليل على ذلك أن نسطوريوس الذى نفى إلى مصر لم يتمكن من نشر مذهبه داخل البلاد، بينما انتشر مذهبه إلى الشرق حتى عمق آسيا والصين.

وفى الوقت نفسه أثرت مصر كثيراً على بلاد الشام وأبعد منها، وغلم القديس أنثاسيوس الغرب الأوربى الرهبانية، وانتشر المذهب الأريوسى بعيداً حتى وصل إلى معظم القبائل الجرمانية فى أوروبا الشرقية والغربية وظل حتى نهاية القرن الثامن الميلادى تقريباً.